دراسات الأدب المعاصر، السنة السادسة، صيف ۱۳۹۳، العدد الثانی والعشرون: صص۹- ۲۳

ملامح الرمانسية فی شعر محمود سامی البارودی

یاسر هوشیار*

فیروز حریرچی**

تاریخ دریافت: ۹۲/۹/۱۸

تاریخ پذیرش: ۹۳/۳/۲۰

الملخّص

یعتبر المذهب الرومانسی فی أول ظهوره تجدیداً فی طریق الإحساس والتفکیر والتعبیر، إنّه ثورة ضد القیود التی فرضتها الکلاسیکیة، وإنّ الرومانسیة فی أصلها لون من ألوان الأدب العربی نشأ فی أروبا ثمّ تسرّب فی القرن التاسع عشر إلی الأدب العربی. وفی الحقیقة إنّ الأدب العربی تأثّر بمذهب الرومانسی ومن الشعراء الذین تأثّروا بمذهب الرومانسی الشاعر الذائع الصیت المصری *محمود سامی البارودی* من رواد التجدید فی الشعر العربی الحدیث؛ حاولنا فی هذا المقال أن نتناول أحد مظاهر التجدید فی أشعاره وهی الرومانسیة. *البارودی* بحکم حیاته تأثّر بمذهب الرومانسی وخطا فیه خطوة الرومانسیین. لکنه لما تسود علیه النزاعات المختلفة من الکلاسیکیة والواقعیة تأتی رومانسیته أحیاناً غیر واضحة مما یضطر القارئ إلی إمعان النظر الطویل لکشف المعالم الرومانسیة فی أشعاره. ومن أهم المضامین الرومانسیة التی تجلت فی أشعاره هی الطبیعة، والحب، والحنین، والشکوی من المجتمع، والدعوة إلی العزلة والإغتراب.

الکلمات الدلیلیة: الرومانسیة، الحب، الغربة، الطبیعة، الحنین.

* طالب مرحلة دکتوراه فی قسم اللغة العربیة وآدابها، بجامعة آزاد الإسلامیة، فرع علوم وتحقیقات، طهران، ایران.
yaser.hoshyar@yahoo.com

** أستاذ فی قسم اللغة العربیة وآدابها، بجامعة آزاد الإسلامیه فرع علوم وتحقیقات، طهران، ایران.
F_harirchi@srbiau.ac.ir

الکاتب المسؤول: یاسر هوشیار

المقدمة

إنّ الأدب العالمی شهد منذ عهوده الأولی إلی القرن الحاضر تطورات عدیدة ظهرت آثارها علی أشکال مختلفة فی مؤلفات الأدباء والشعراء والکتاب. من تلک التطورات التی تعرض الأدب لها فی القرن الحدیث هی نشأة التیار الرومانسی الذی ظهر فی النهایة القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فی أروبا. إنّ الرومانسی حین فتح عینیه علی العالم وجده متمسکاً بالقدیم وخالیاً من الجدید والإبداع والإبتکار، وإنّ کل ما یظهر فیه من الآثار هو تقلید محاکاة عن القدیم. إنّه حین شاهد هذه المعالم التقلیدیة والمکررة وهو یترع مترع التجدید سئم منها، قام تأثیراً علی القدیم، رافصاً التقلید، داعیاً إلی التجدد و التجدید ومسایرة روح العصر.

من هولاء الشعراء الذین رغبوا فی التجدید هو الشاعر محمود *سامی البارودی* الذی نجد کثیراً من المظاهر الرومانسیة فی أشعاره. أمّا الدراسات السالفة- مع کثرتها ووفورها- حول *البارودی* لم تسلّط الضوء علی مضامین الرومانسیة عند *البارودی* بضوءٍ واضحةٍ، وفی دراستنا هذه حاولنا لشرح وتوضیح مضامین الرومانسیة عند *البارودی* بصورة سهیلٍ علی القارئ تلقّیها.

قد أثارت إهتمامنا إلی أن ندرّس«مضامین الرومانسیة فی أشعار محمود سامی البارودی» ونجعل عنوان دراستنا «ملامح الرومانسیة فی أشعار محمود سامی البارودی» وسعینا من خلال دراستنا هذه أن نکشف خلال أشعار *البارودی* موضوعات الرومانسیة الشهیرة.

فی هذا المقال نرید الإجابة عن هذین السؤالین:

١) أی موضوع من الموضوعات الرومانسیة یوجد فی أشعار *البارودی*؟

٢) إلی أی مدی تأثّر *البارودی* بالمذهب الرومانسیة؟ بناء علی هذه الأسئلة سنثبت الفرضیات التالیة: من المواضیع الرومانسیة المهمة التی تواجدت فی شعر *البارودی*؛ هی الحب، والحنین والشکوی والغربة. وکان *البارودی* منذ صباه متأثرا من الرومانسیة وحاول أن یجسّدها بکل أنواع التعبیر، *فالبارودی* شاعر وجدانی بامتیاز.

الأدب العربی والرومانسية

بدأ إحساس أدباء العرب بالنفور من الأدب التقليدی الجامد الذی ورثوه عن عصر الإنحطاط، منذ القرن التاسع عشر الميلادی، وكان هذا النفور إيذاناً بافتتاح عصر جديد تزدهر فيه القيم العربية الأصلية وتزول عنه صفة الجمود، الذی سيطر على الحياة الفكرية والأدبية وصفة التقليد الجاف الذی كان منحصراً فی النماذج الأدبية القديمة، وكان تقليداً فی الشكل دون الروح(احمد ذكی عشماوی، لا.تا: ۹۵). «كما ذكرنا آنفاً قد لجأ رواد حركة البعث الأدبی من الشعراء فی القرن التاسع عشر إلى الينابيع الأولى للشعر العربی وخاصة فی عصر الإزدهار العباسی، لكی يعيدوا للشعر العربی القديم مجده من الجديد ويتخطوا المسافة الشاسعة بينهم وبين الأدب العربی الأصيل ولقد إستطاع *محمود سامی البارودی* الرائد الأول لهذا الإتجاه، أن يرتفع ببنائه الشعری ليحاكی نماذج المجلين من صفوة شعراء العرب كما إستطاع أن يحقق نجاماً هائلاً فی استعارة الإطار الشعری وتحميلة خواطره وعقله»(محمد مصطفی هدارة، ۱۹۹۴م: ۱۷). «إننّا نشاهد المئات من فحول الأدب من امثال *أحمد شوقی*، *حافظ ابراهيم* و *محمود سامی البارودی* ظللوا أوفياء لتراث الأمة العربية وموروثاتها الفكرية والأدبية الراجحة مع محافظتهم على الأغراض الأدبية القديمة على ما فی شعرهم من تجديد وتحديث لكنهم حرصوا، فی الوقت نفسه، على التوفيق بين الأصالة والمعاصرة»(سادات اشكور،۱۳۹۲: ۴-۱۲).

لم يبعد الأدب العربی عن هذا التيار الأدبی وأقبل عليه الأدباء العرب بحكم ما كانت تقتضيه روح العصر الحديث؛ ودعوا إلى تحرير الشعر العربی من القيود المتبعة وإلى هدم الحواجز التی تحوّل دون تقدّمه وازدهاره وإلى تطعيمه بمذاهب الشعر الغربی. والعوامل التی أدّت الى اقبال الرومانسية هی إكثار شعراء مدرسة الاحياء من الالتفات إلى القديم ومحاكاته ومعارضته، واهتمامهم بشعر المناسبات، وانصرافهم عن تجاربهم الذاتية إلى الحديث عما هو خارجها، واهتمامهم بالصياغة والشكل والقالب على حسب المعنى والفكر والوجدان، ووقوفهم على حد اعتبار البيت الشعری وحدة مستقلة وعدم الاهتمام بالوحدة العضوية فی القصيدة»(شمس آبادی،۱۳۹۱ش: ۱).

تقليد *البارودی* لم يصرفه عن فكرته التجديدية التی إنبعثت من طبيعته وخلقه؛ فهو يرى أن الشعر مرآة العصر ويعتقد أن الشعر ميت إذا بقی بعيداً عن حياة العصر والبيئة

ولذلک أراد أنْ يجمعَ بين مجاراة الأقدمين والتمشی مع المحدثين فعالج فی ديوانه أغراض مستحدثة(الفا خوری، ج١، ١٩٩١م: ۴۴۵)؛ وقد إستطاع هذا الإتجاه الذی سلكه *محمود سامی البارودی* أن يؤثر تأثيراً بالغاً فی النهضة الشعرية بعد ذلک. حيث إستمرت حركة البعث «الإحياء» عند مدرسة بأكملها وتزعمها أحمد شوقی(١٨۶٨-١٩٣٢) وكان من رجالها *حافظ إبراهيم*(١٨٧٢-١٩٣٢) و*علی الجارم*(١٨٨١-١٩۴٩) و*معروف الرصافی*(١٨٧٧-١٩۴۵) وكانت هذه المدرسة تدعوا إلى إحياء التراث الشعر القديم(سعيد الورقی،١٩٨۴م: ٢۶).

وبعد أن قام شعراء مدرسة الإحياء بدورهم الكبير فی إعادة الشعر العربی إلى التدفق إلى مجراه الأصيل الذی إختطه فی العصور الذهبية، وفی نفی ظواهر الضعف والإنحطاط عنه، إستجدت عوامل سياسية وإجتماعية وفكرية على العالم العربی، هزته فی أعماقه، وغيرت من قيمه ونظرته إلى الوجود. ودعی بعض المثقفين إلى الثورة على كل ما هو راسخ فی مجتمعهم ومنه الشعر. ووجد الشعراء أنفسهم مرفوعين إلى التيار الرومانتيكی الثاير على سيادة المنطق والعقل والداعی إلى اتخاذ العاطفة أساساً فی التجربة الفنية. هذا التيار الذی نشأ فی أروبا ليواجه التيار الكلاسيكی الذی حال بين المرء وحريته(نفس المصدر: ٢٢).

رأی النقاد حول رومانسية البارودی

ألقی *الدكتور عبدالقادر* القی محاضرةً فی ندوة الدورة الثالثة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع العشری تحت عنوان «البارودی بشير الإتجاه الوجدانی» تحدث فيها عن رومانسية *البارودی*. فی إشارة سريعة لأسباب رومانسية الشاعر يقول *الدكتور*: «و من المعروف أنّ حياة *البارودی* قد حفلت- منذ صباه- بالإحداث والتجارب، فخاض وهو شاب حرب كريت ثم إشترک فی حرب البلقان ثم قدر له أن يضطلع بدوره المعروف فی الثورة العربية وأن تنتهی حياته بنفی سبعة عشر عاماً. فقد أثناها زوجته وبعض ولده وأصدقاءه فی أرض الوطن ودبت إلى جسده الشيخوخة وإلى روحه اليأس بعد معاناة طويلة من مرارة الهزيمة والندم والغربة وقد فرصت هذه التجارب على الشاعر أن يرتدّ إلى ذاته فينبعث شعره- على الرغم من مظاهر التقليد- من الحرارة والعواطف الممتزجة

بالبصيرة النافذة، ما لا ينبع إلا التجربة والملاحظة الدائبة للنفس والناس والحياة. وقد ظلت تلك ظاهرة ملحوظة من قبل فی الشعر العربی عند شعراء كانت لهم تجارب خاصة فی الحياة، طبعت بعض شعرهم بسمات ذاتية تميزوا بعضها عن سائر الشعراء»(مجموعة من المتخصصين،۱۹۹۲م: ۲۵۶).

نعم إنّ *البارودی* حتی فی أشعاره الكلاسيكية أدخل مشاعره الصادقة وذاته. فمثلاً عندما يرثی أصدقاءه أو عندما يمدح ترى علائم الذائية قد تجلت فی شعره ويستطرد هذا الأخير حديثة عن رومانسية *البارودی* ويقول: «لعل ما زاد إلتفات الناس إلی الشعر البارودی وإعجابهم به أن حياته الحافلة بالأحداث ونهاية الفاجعة وكثرة حديثة فی شعره عن تحوّل المصائر وخيانة الأصدقاء جعلت منه ومن سقوطه الفاجع «شخصية مأسوية» مثيرة للوجدان الرومانسی. ممثلة للصراع، بين القدرة والعجز والإرادة والقدر وسقوط «المثال» وإنكسار المنتصر. وكلها معان تمثل جوانب أساسية للتصور الوجدانی أو الرومانسی للحياة»(نفس المصدر: ۲۹۸).

وقد نری نفس هذا المعنی وهذا القول علی لسان باحث آخر وهو من روّاد الوجدانية المعروفين فی الرواية، وهو *محمد حسين هيكل* فی مقدمة ديوان *البارودی*. فإنّه يری أنّ أشعار *البارودی* ليست كلاسيكية محضة وخالية من الوجدان ونفسية الشاعر بل علی العكس هی صورة كامله لنفسيته وآلامه.

«لشعر *البارودی* حياته فكل قصيدة فی ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم. والديوان فی مجموعة صورة للعصر الذی عاش فيه وللبيئة التی أحاطت به وللنهضة المتوثبة فی الحياة ما حوله.

وشعر المنفی كشعر الشاب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التی أراد لها القدر أن تكون نغماً من الأنغام تسمو بها النشوة إلی ذروة السرور والطرب حيناً، ثم تصقلها ألسن ويسقلها النفی، فاذا الحكمة والحنين والحب تبعث إلی هذا النغم سكينة تسمو بها علی المألوف من ألحان الحياة لا يغير من ذلک ما يدفعه النفی إلی نفس الشاعر من ألم تترجم عن صيحات ثأئرة»(مقدمة الديوان، ۱۹۹: ۵).

ملامح الرومانسية فی شعر البارودی

١)الحب

يعتبر الحب مدار الكثير من قصائد الشعر الرومانسی، حيث يعتبر فيها الشعراء عن عاطفتهم فی إطار الذاتی يسقطون عليها إحياناً موقفهم من الطبيعة والمجتمع والحياة.

فقد كان للحب شأن بارز فی *البارودی* سواء فی مطالع قصائده الطويلة أو فی قصائد ومقطوعات لإبراز عواطفه. ولم يكن *البارودی*- بالطبع- بدعاً بين الشعراء فی ذلک المجال لكن تجارب الحب عند معاصريه كانت تبدو ضئيلة إلی جانب أشعار المناسبات والإخوانيات والأحداث والإجتماعية والمعارضة. علی حين تبدو غزليات *البارودی* بينة الصلة فی الموقف والتعبير من أشعار الحركة العذرية(مجموعة من المتخصصين، ١٩٩٢م: ٣١٣-٣١٤)

للبارودی مقطوعات رومانسية خالصة فی الحب تكاء فی مسير لغتها و«بساطة» أسلوبها وفی صورها ومشاعرها، تختلط بالمقطوعات الغدرية المعروف. منها مقطوعته:

هل مِن فَتَی يَنشُدُ قلبی مَعِی ... بينَ خُدورِ العينِ بالأجرعِ؟
كان معی ثمَّ دعاهُ الهَوَی ... فمَرَّ بالحیِّ ولم يَرجعِ
فهل إذا ناديتُهُ باسمِهِ ... يُفيقُ مِن سَكرتِهِ أو يَعِی
هيهاتَ يَلقَی رَشَداً بعدَمَا ... أغوَاهُ لَحظُ الرَّشاءِ الأتلعِ
فيا دُمُوعَ القَطرِ سيلی دَمَاً ... ويا بناتَ الأيكِ نوحی معی
و أنتِ يا نَسمَةَ وادی الغَضَی ... مُرِّی بِرَيَّاكِ علی مَربَعی
وأنتِ يا عصفورةَ المُنحَنی ... باللهِ غَنِّی طَرَباً وإسجَعِی
وأنتِ يا عينُ إذا لم تَفِی ... بِذِمَّةِ الدَّمعِ فلا تَهجَعِی
صبابةٌ أغرَت علیَّ الأسَی ... ودَلَّتِ السُّهدِ علی مَضجَعی
ويلاهُ مِن نارِ الهَوَی إنَّها ... لولا دُمُوعی أحرَقَت أضلُعِی
أبيتُ أرعَی النَّجمَ فِی سُدفَةٍ ... ضَلَّ بِها الصُّبحُ فلم يَطلُعِ

(ديوان الشاعر، ١٩٩٢م: ٥٢٩)

الإرتباط بين هذه القطعة وما شابهها من الشعر العذری واضحة فی هذه الأسی وفی ذالک الإهتمام والتوجه نحو مظاهر الطبيعة الرقيقة والأخاذة، وفی النداء المكرر الذی

كثيراً ما لجأ إليه الرومانسيون وعبروا عن حبهم ومواطنهم الأولى وفی غلبة الموسيقی الهادئة الحزينة والهدوء الذاتی نجده فی شعراء أصحاب الإتجاه الوجدانی، وكذالک من ناحية صورها قريبة إلى طبيعة الشعر الرومانسی الذی يكون فی مجال الحب وتجاربه.

وهكذا يبدو الصوت الذاتی فی كثير من قصائد الشاعر عن الحب والطبيعة والمحنة يتمثل أحيانا فی أبيات تتتابع فيها الإضافة إلى «ياء المتكلم»، مؤكدة نسبة ذلک الأحاسيس إلى الشاعر وحده:

ذاکَ مَرعَی اُنسِی ومَلعَبُ لَهوِی وجَنَی صُبُوتی ومَغنَی صَحَابی

(نفس المصدر: ۱۸۶)

فشَخصُک فی عَينی وذِكرکِ فی فَمی حُبک فی قلبی وسرّک فی صَدری

(نفس المصدر: ۲۶۱)

ولذلک *للبارودی* أشعار يتحدث عن مكابة الحب والأشواق، ويصور كما يفعل العذريون والرمانسيون على أنّه قدر مكتوب لا سبيل للفرار منه. يبدو الربط بين الحب والقدر إشارة صريحة إلى محنة الشاعر وما ينتابه من شاعر الندم:

لولا مكابَدَةُ الأشواقِ ما دَمَعَت عينٌ ولا باتَ قلبٌ فی الحَشَا يَجِبُ

فيا أخا العَذلِ لا تَعجَل بلائِمةٍ علیَّ فالحبُّ سلطانٌ له الغَلَبُ

(نفس المصدر: ۱۸۶)

فقوله «لو كان للمرء عقل يستضیء به» إلى قوله «لكنه غرض للدهر يرشقه» يبدو فی سياقة جزءً من المطلع العاطفی يلتمس الشاعر العذر والرومانسی لنفسه، إذا تاح للحب أن يغلبه على أمره. و كأنه قدر مكتوب كان ما يزال فی باطن الغيث.

۲)الطبيعة

ولقد كان محمود *سامی البارودی* ملتفاً للشعر إلى شعراء الطبيعة بطريقة تشبه طريقة الرومانسيين. ونلاحظ فی القصيدة التالية كيف يسكب أوجاعه ومشاعره على عناصر الطبيعة من حوله ويطلق العنان لإبراز عواطفه وخياله، ويمزج بين إحساسه وما يشاهده من الطبيعة والحياة من حوله. فالحمام ينوح معه وتنهر دموع الغمام ويتألق خياله فيتصور البرق، يلتهب وتشتمل أحشاؤه بسبب شرارة إرتفعت إليه صاعدة من بين ضلوعه وما

يمكن فيها من نار الحب، التی يزودها الوسواس الموجودة فيه بالقوه والحركة ويرهف سمعه وينصت فيسع أزيز هذا الميزان وهی تحرق فؤاده:

أتُرَی الحمامَ يَنُوحُ من طَرَبٍ معی ... ونَدَی الغَمَامة يَستَهِلُّ لمَدمَعِی؟
ما للنَّسيمِ بَليلةً أذيالُهُ؟ ... أتُراه مَرَّ عَلَی جداولِ أدمُعِی؟
بل ما لهذا البرقِ مُلتَهِبَ الحَشَا؟ ... أسَمَت إليهِ شَرَارةٌ مِن أضلُعِی؟

(نفس المصدر: ٥٢٥)

إنّ *البارودی* يحكی مشاعره وآلامه التی إنعكست فی بصره علی الطبيعة من حوله وكأنما تمثل فيها نفس الآلام ونفس المشاعر.

يری *شوقی ضيف* أنّ *البارودی* «يعد بحق طليعة شعرائنا الوجدانيين ألذين نفضوا أحاسيسهم علی ما حولهم من عناصر الطبيعة»(ضيف، ٢٠٠٦م: ١٥٨).

وما من قوله أيضا يصف طائراً علی غصن نبهه بصوته الهامس فی وقت السحر:

ونبأة أطلَقَت عَينَیَّ مِن سِنَةٍ ... كانَت حِبَالةَ طَيفٍ زارَنی سَحَرَا
فَقُمتُ أسألُ عَينِی رَجعَ ما سَمِعَت ... أُذنِی فَقَالَت لَعَلِّی أبلُغُ الخَبَرَا

(ديوان الشاعر: ٢٥٤)

قد وصف حركة الطائر الحسية والنفيسة وصفاً دقيقاً أعدته هذه البراعة فی الصوف ليأتی فی أشعاره بصورة كثيرة دقيقة(ضيف،٢٠٠٦م: ١٥٩). من قوله أيضاً:

فَيَا«رَوضَةَ المِقياسِ» حَيَّاكِ عار ... مِن المُزنِ خَفَّاقُ الجَنَاحِينِ دالِحُ
ضَحُوكُ ثَنايا البرقِ تَجری عُيُونُه ... بِوَدقٍ بِهِ تَحيَا الرُّبَا والصَّحاصِحُ

(ديوان الشاعر: ١٠٥)

وهو دعاء لها بالغيث والحضب، يعبر به عن لواعج حنينه إلی وطنه وملاعب شباب. ولا ربی بها ولا صحاصح أو فلوات. وقد اختار من بين الرياح الصبا ولا صباً هناک، لإنّ الصبا وهی ريح الشرقية لا تسقط فی مصر المطر، ولكن جاء بها لأنّها الريح التی طالما حملها المحبون من العرب تحياتهم و أشواقهم إلی محبوباتهم وقد أقامها تنسج لروضة المقياس حلة بديعة من الأزهار.

۳)الحنين

إنّ قراءة شعر *البارودی* فی الحنين وهو من أهم موضوعاته الرومانسية تجعلنا نقسم هذا الموضوع إلى ثلاثة أقسام.

الف)الحنين إلى الوطن والأرض

ولد *البارودی* وعاش ومات فی مصر. وكان مصر موطناً لآبائه وأجداده وملتقى أصدقائه وذكرياته وأهله، لذلک أحبها كثيراً. فلمّا كان بعيداً عنها كان يحنّ إليها ولكن حنينه يختلف من قصيدة إلى أُخرى. فتارة يكون هادئاً وتارة أخرى يكون عاصفاً. فلما كان فی حرب جزيرة كريت (سنة ۱۸۶۵م) تشوق إلى مصر. فقال:

بَلَدٌ خَلَعتُ بها عِذَارَ شَبيبَتِی وطَرَحتُ فی يُمنَى الغَرَامِ عِنانِی

(نفس المصدر: ۶۴۴)

فالشاعر يحن إلى وطنه مصر حنيناً عادياً فهو واثق من عودته القريبة إلى وطنه، وهو يمزج بالإفتخار بنفسه. ويشير إلى ما كان له فيها من متع ولذات. ثم إنّه فارق وطنه طلب مقدر عليه.

ب)الحنين إلى الإنسان

إنّ *البارودی* حاول طليعة حياته على سبيل الرومانسيين أن يجد صديقاً صادقاً وفياً. إنّه كره الذين يستغلون صداقاتهم لمصالحهم الشخصية ويتقربون منه حين كان فی المناصب الرفيعة يتركونه عند المصائب وملمات الدهر. مع ذلک فقد ظل *البارودی* حريصا على صديقاته. فلما كان فی حرب الروس مع الدولة العثمانية (سنة ۱۸۷۷م) أرسل قصيدته الدالية إلى أستاذه وصديقه *الشيخ حسين المرصفی* وقال فيها معاتباً على قلة مراسلاته له:

ومِن شِيَمِی حُبُّ الوَفاءِ سَجِيةٌ وما خيرُ قلبٍ لا يَدومُ لهُ عَهدُ؟

ولكن إخواناً بمصرَ ورِفقةً نَسونَا فلا عهدٌ لديهِم ولا وعدُ

(نفس المصدر: ۱۶۷)

ج) الحنين الى الطفولة و الشباب

الإنسان بطبعه دائم الحنين إلى أيام الطفولة والشباب. وهی أيام السعادة واللهو والقوة والفتوة والنشاط والصحة؛ والشعراء أكثر الناس حنيناً إلى ذلک. و*البارودی* يحن إلى تلک الأيام، وهو يعاتب دهره مرة ما آل إليه. أو يطلب منه أن يعيد إليه أيام شبابه:

أعِد يا دَهرُ أيامَ الشَّبابِ وأينَ مِنَ الصِّبَا دَركُ الطِّلابِ؟
زمانٌ كلَّما لاحَت بفكری مَخايِلُهُ بكيتُ لفرطُ ما بی
مَضَی عنی وغادَرَ وَلُوعاً تَوَلَّدَ مِنهُ حُزنی واكتئابی

(نفس المصدر: ۶۵)

۴)الشكوى من المجتمع

الشكوى من المجتمع هی جزء من الحركة الرومانسية. فالرومانسی فرّ بروحه وخياله من بيئة إلى بيئات يحلم بها، أو إلى ماض يطلب فيه العزاء وقد قدّس الرومانسی الفردية ووضعها فی طرف نقيض للمجتمع وقوانينه، فإذا تناقضت المصالح راح يصب جام غضبه على القوانين والتقاليد والناس(غنيمی هلال،۱۹۷۳م: ۱۰۸).

البارودی أيضاً صار فی هذا الطريق وأظهر تألمه من الخداع والتلون والتحيل، وصار يشكو دائماً من عدم وجود صديق وفی:

صَحِبتُ بنی الدُّنيا طَويلاً فلَم أجِد خَليلاً فَهَل مِن صاحِبٍ أستجِدُّهُ
فأكثرُ مَن لاقيتُ لم يَصفُ قَلبُهُ وأصدَقُ مَن واليتُ لم يُغنِ وُدُّهُ

(ديوان الشاعر: ۱۲۵)

إنّ *البارودی* هنا كالرومانسيين يريد المستوى الأعلى فی الصداقة والصديق، ويطلب من أيامه «بما ليست عندما» يعتقد إنّ أصعب شیء يجده الفتی فی زمانه هو الصديق الوفی. يلقی *البارودی* عتابه ولومه على المجتمع والدهر، ويعتقد أنّ الدنيا خلت من «أخو الثقة»:

فأنفُض يَديكَ مِن دنيا فلستَ تَرَی خِلّاً وفياً وعَهداً غَيرَ مُنصَرِمِ
هيَهاتَ لَم يَبقَ فِی الدُّنيا أخو ثِقَةٍ يَرعَی المَوَدَّةَ أو يُلقِی يَدَ السَّلَمِ

(نفس المصدر: ۶۱۹)

یستمر *البارودی* فی الشکوی من الدهر الـذی أخـره، وهـو العـالم والشـاعر و الفـارس والشجاع و قدم الذین «من دونه علیه»:

أنَّا الَّـذی عَـرَفَ الأیَّـامَ وانکشَـفَت لـهُ سَـرَائِرُهَا مِـن کُـلِّ مُختَـزَنِ
طُفتُ البِلادَ وجَرَّبـتُ العِبَـادَ فَلَـم أرکَن لِخِلٍّ ولَم أجنَح إلی سَکَنِ

(نفس المصدر: ۶۵۹)

إنّ *البارودی* هنا یشکو من الدهر الذی قدم ورفع الذین هم أقل مستوی منـه و أخّـره، ویعتبر هذه الصفة من صفات الدنیا دائمة. والسرور والفرح الذی یأتی به الزمان والدهر أقل من الحزن الذی یحمله علی البشر.

۵) الدعوة إلی العزلة

یدعو *البارودی* فی بعض أشعاره إلی العزلة عن المجتمع والناس، وهی دعوة رومانسـیة خالصة، ویری أنّ هذه العزلة ربّما تکون أفضل من الإختلاط بالناس الذین یسیطر علـیهم الکذب واللؤم:

ومِـنَ النَّـاسِ مَـن تَـرَاهُ سَـلیماً وهـوَ داءٌ تَـدوَی بـهِ الأفهـامُ
قد-لعَمرِی-بَلَوتُ دَهرِی فما أحـ مَـدتُ مِنـهُ مـا تَحمَـدُ الأقـوامُ

(نفس المصدر: ۶۲۳)

هذه الأبیات فی الحقیقة نتیجة لتجربه الشاعر ومشاعرته للنـاس، فهـی لیسـت کلامـاً سمعه أو قرأه فی کتاب أو دیوان إنّما شیء لمسه بنفسه وأحسّه وتألم منه.

۶)الغربة و الإغتراب

من المعروف إنّ الغربة هی محور أساسی فی کثیر من القصائد الرومانسیة. هذه الغرابة ربّما تکون روحیة أو تکون مکانیة، وهی نهایة تؤدی إلی الغربة النفسیة أو الروحیة. بـدأت غربة الشاعر منذ شبابه؛ وهو فی سن الخامسة والعشرین حین إشترک فـی حـرب کریـت رغم شبابه وطموحه وحبه للمغامرة. یمتزج وصفه للحرب بالتعبیر عن غربته وحنینه إلـی حبه ووطنه. وقد تنحصر بعض مقطوعاته فقط للشوق والحب والغربة دون ذکر الحرب.

سَرَی البرقُ مِصریّاً فَأرَّقَنِی وَحـدی وأذکَرَنی ما لستُ أنسـاهُ مِـن عهـدِ

فيـا بـرقُ حَـدِّثنِی وأنـتَ مُصَـدَّقٌ عن الآلِ والأصحابِ ما فعلوا بعـدی

(نفس المصدر: ١٣٤)

وفی مكان آخر ضمن حديثه عن حرب البلقان يسـكب مشـاعر الغربـة والحنـين إلـی الماضی.

نستطيع أن نری الإرتباط بين الغربة الروحية والغربة المكانية فی هـذه الأبيـات، وفـی البيت الخامس تشويقاً إلی الماضی. وهی سمة أخری من سـمات الرومانسـية فـی أشـعار الرومانسيين. يربط الشاعر غربته فی بعض الأحيان بالحديث عن الحب ويعطی صورة عـن وجدانه وذاته وتجربته:

ومِـن عَجَـبِ الأيّـامِ أنّـی مُولَـعٌ بِمَن ليسَ يَعنِيهِ بُكائی ولا سُـهدی

أبيتُ عليلاً فی«سَرَنديبَ» سـاهراً أُعالجُ ما ألقاهُ مِـن لَـوعَتی وَحـدِی

(نفس المصدر: ١٦٣)

للبارودی أيضا حديث فی المحنة والغربة والعذاب الناتج عنهما. يقول *عمـر الدسـوقی*: «وقد أثر النفی فی حسّه المرهف فزاده بؤسا علی بـؤس»(الدسـوقی،٢٠٠٣ م: ٢٢٣). إنّ هذا البؤس الذی يتحدّث عنه نراه فی قصيدة يندب *البارودی* فيها شـبابه ويظهـر محنتـه ويصف حاله:

كَيفَ لا أندُبُ الشَّـبابَ وقَـد أصـ ـبَحتُ كَهـلاً فـی مِحنَـةٍ واغتـرابِ

أخلَـقَ الشَّـيبُ جـدَتِی وكَسَـائی خِلعَـةً مِنـهُ رَثّـةَ الجِلبـابِ

(ديوان الشاعر: ٦٨)

إنّ هذا الكلمات تصوِّر لنا حالة *البارودی* النفسية لأنهّا فی الحقيقة تصـوِّر ذات الشـاعر، فهو لا يتحدث عن فخراً ومدحاً أو حرباً أو حكمة؛ إنّما يبرز حالته النفسية وآلامه ويشـكو من القدر المحتوم الذی أخذ منه شبابه وحكم عليه بالسـجن والنفـی والبعـد عـن الأهـل والعائلة، ولم يتركه إلی هذا الحد بل كساه؛ كمـا يقـول خلعـة رثـة الجلبـاب ولـوی شـعر حاجبة علی عينيه ولم يبق منه إلا«أشلاء همة فی الثياب».

للبارودی قصيدة من الشعر الرومانسی الوجدانی الذاتی فـی ثلاثـين بيتـاً نظمهـا وهـو بسرنديب؛ نجد فيها أكثر ملامح الرومانسـية. تتجلـی نفسـية البـارودی وذاتـه فـی هـذه القصيدة التی يمكن تقسيمها علی النحو التالی:

هجران الحبيب وتأثيره على نفس العاشق	۱-۴
غربة الشاعر فی سرنديب	۵-۸
الحنين إلى مصر	۹-۱۴
الحنين إلى الأهل	۱۵-۱۹
الحنين إلى زمن الشباب	۲۰-۲۳
الإستسلام للقضاء والقدر	۲۴-۳۰

تبدأ القصيدة بالكلام عن الحب وطلب دواء وشفاء له وتصوير ما فعل الهوى والحب بشاعر:

هَل مِن طَبيبٍ لِدَاءِ الحُبِّ أوْ راقِی؟ يَشفِی عَلِيلاً أخا حُزنٍ وإيراقِ
قد كانَ أبقَى ألهَوَى مِن مُهجَتِی رَمَقاً حَتَّى جَرَى البَينُ فاستَولَى عَلَى الباقی

(ديوان الشاعر: ۳۷۰)

نتيجة البحث

كشفت لنا الدراسة إنّ *محمود سامی البارودی* بحكم حياته وما تلی من ذلک المصائب الجسام لجاء إلى الشعر الوجدانی، الذی يعتمد على العاطفة القوية؛ وهذه الميزة من أهم الميزات ألتی دعت إليها المدرسة الرومانسية وهذه النزعة الرومانسية عند *البارودی* تتجلى بوضوح فی قصائده التی عالج فيها موضوع الطبيعة، والحب، والحنين، والشكوى من المجتمع والغربة والدعوة إلى العزلة.

إنّ *البارودی* فی إقباله على الطبيعة ينحو منحى الرومانسيين. إنّه حين يكره مظاهر المجتمع السلبية من مثل الكذب والنفاق يفرّ إلى الطبيعة حيث يجد الهدوء والبساطة والجمال، وتروقه الوحدة بينها. يلجأ فی هدأة الليل إلى أحضانها ويحكی مشاعره وآلامه التی انعكست فی بصره على الطبيعة من حوله، وكأنما تمثل فيها نفس الآلام ونفس المشاعر.

البارودی حين يحسّ فی المنفی بالغربة، يحنّ إلى وطنه ويذكره بشعبه والطبيعة ويصف مناظره، ولا ينسی وطنه فی أية حال من الأحوال. إذا نمعن النظر فی أشعاره الإغترابية نری أنّ الشاعر يقل صبره فی أخريات نفيه وتتغير أحواله، وانعكست فی قصائده

الحسرة والتوجّع و الشوّق إلی وطنه. فلهذا کانت أشعاره الوطنیة التی تتضمن الحنین من أجود ما نظم فی حیاته الشعریة وصار هذا فناً بارزاً علی ید *البارودی*.

الحنین إلی الأهل والأصدقاء: یظهر *البارودی* حین طروء الشکوی والحنین حزنه واضحاً فی تجلی الأمل والخیبة کعنصرین متخلفین، وهذا من خصائص شعره العاطفی؛ فنستطیع أن نقول إنّ القصائد الرثائیة فی أهله وأصدقائه قصائد وجدانیة تقترب من الرومانسیة، لأنّ الشاعر قد التزم فیها بعواطف صادقة تسوق قریحة الشاعر إلی معان خاضعة للعاطفة وتکاد الشکوی والعاطفه والحنین تکون المحور الرئیسی لهذه القصائد.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المصادر والمرجع

البارودی، محمود سامی. ۱۹۹۲م، **الدیوان**، شرح علی الجارم ومحمد شفیق معروف، القاهرة: مؤسسة جائزة عبدالعزیز سعود البابطین للإبداع الشعری بالتعاون مع الهیئة المصریة للکتاب.

الدسوقی، عمر. ۲۰۰۳م، **فی الأدب الحدیث**، الطبعة الثانیة، القاهرة: دار الفکر العربی.

ضیف، شوقی. ۲۰۰۶م، **البارودی رائد الشعر الحدیث**، القاهرة: دار المعارف.

عشماوی، أحمد ذکی. لا تا، **الأدب وقیم الحیاة المعاصرة**، الإسکندریة: الهیئة المصریة العامة.

غنیمی هلال، محمد. ۱۹۷۳م، **الرومانتیکیة**، القاهرة: دار النهضة المصر للطبع والنشر.

الفاخوری، حنا. ۱۹۹۱م، **الموجز فی الأدب العربی وتاریخه**، المجلد الأول، بیروت: دار الجیل.

القط، عبدالقادر. ۱۹۹۲م، **البارودی بشیر الإتجاه الوجدانی فی الشعر العربی الحدیث**، القاهرة: مؤسسة جائزة عبدالعزیز البابطین للإبداع الشعری.

موسی، خلیل. ۱۹۹۹م، **البارودي رائد النهضة الشعرية الحديثة**، الطبعة الأولی، بیروت: دار ابن کثیر.

الورقی، سعید. ۱۹۸۴م، **لغة الشعر العربی الحدیث**، بیروت: دار النهضة العربیة.

هدارة، محمد مصطفی. ۱۹۹۴م، **بحوث فی الأدب العربی الحدیث**، بیروت: دار النهضة العربیة للطباعة والنشر.

المقالات

سادات اشکور، سید سلیمان. صیف ۱۳۹۲ش، «**الکلاسیکیة والتجدید، صراعات ومعطیات**»، فصلیة دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت، السنة ۵، العدد ۱۸، صص۴ـ۱۲.

شمس آبادی، حسین ومهدی ممتحن. صیف۱۳۹۱ش، «**مفاهیم الإغتراب والتغریب فی الأدب العربی؛ دراسة مقارنة فی الأسالیب والتأثیر**»، فصلیة دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت، السنة ۴، العدد ۱۴، ص۱.

ملازاده، ریحانة. صیف ۱۳۸۹ش، «**الرومانسیة فی شعر سید قطب**»، فصلیة دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت، السنة ۲، العدد ۷، ص۱.